محاضرة بعنوان:

التأثيرات المصرية على تشريعات عهد سيناء:

Egyptian influences on Sinai era legislation

المادة : التاريخ القديم
المرحلة : الاولى

إعداد:

م. د. مجيد جاسم محمد أحمد الشعيبي

أستاذ تاريخ الأديان – رئاسة جامعة الأنبار

كلية التربية للبنات

احتلت مصر مكانة بالغة في تاريخ بني إسرائيل، فقد اعتبرها بنو إسرائيل قدرهم، إليها لجئوا وبها لاذوا وفيها عاشوا ومنها خرجوا، والأهم من ذلك أنهم تلقوا شريعتهم المقدسة على أرضها. وتظهر مكانة مصر في الفكر الديني الإسرائيلي من خلال احتلالها الجزء الكبير من المادة التاريخية والتشريعية الواردة في مصادر التشريع، لا سيما في العهد القديم، فوفقاً لـ "ابن شوشان אבן שושן" ، ورد اسم مصر في العهد القديم حوالي ستمائة وثمانون مرة، ووردت صفة النسب إلى مصر، سواء للمفرد المذكر أو المفرد المؤنث أو جمعهما، حوالي تسع وعشرون مرة؛ في حين يؤكد محرر الموسوعة العبرية، أن مصر ظلت تستخدم كحافز عكسي لتحذير اليهود من المعاصي بسبب ارتباطها بذكرى العبودية.

وإذا كانت سمة جماعة بني إسرائيل أنها كانت قد تأثرت في معظم تشريعاتها بتشريعات وعادات وتقاليد الشعوب الأخرى، فإن التأثيرات المصرية على رأس هذه التأثيرات، نظراً لارتباطها بظهور التشريع على موسى في سيناء على أرض مصر، وهو ما دفع بالباحث "جيمس هنري برستيد"، إلى إرجاع التطور الثقافي والحضاري والديني لبني إسرائيل إلى الثقافتين المصرية والبابلية.

لقد سبق أن تحدثت التوراة في سفر التكوين(٤٦:٣٤؛ ٤٧:٥)، أن بني إسرائيل عندما قدموا إلى مصر، أنهم استوطنوا في أرض "جاسان"( ) وكوّنوا مجتمعا هناك. ويبدو أنه نتيجة لطول فترة إقامة بني إسرائيل في مصر التي تحددها التوراة بـ "أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً"، كان أن استهوتهم بعض الآلهة المصرية، لا سيما قبل تلقيهم الشريعة على يد موسى، فكانوا أشد

ميلاً لعبادة العجل "أبيسApis)" ، معبود الدلتا، الذي حدد الكهنة المصريون له علامات معينة؛ فكان إذا ولد في ماشية بني إسرائيل عجلاً له نفس المواصفات التي حددها هؤلاء الكهنة، أخذ بنو إسرائيل بتقديسه، ومن ثم بيعه للمصريين بأثمان باهضه

يُذكر أن عبادة الثور "أبيس" في مصر تعود في أصولها إلى عهد السلالة الأولى(٣١٠٠ق.م) على أقل تقدير؛ فقد تم العثور على مدافن لثيران من هذا النوع، العائدة إلى الفترة المحصورة ما بين القرنين الرابع عشر والقرن الأول ق.م، لاسيما تلك المدافن التي تم العثور عليها في معبد "سيرابيس"، والتي بلغ عددها اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن بين عهد رعمسيس الثاني(١٢٩٩-١٢٣٢ق.م) إلى العهد اليوناني. وعلى الرغم من أن عبادة "أبيس" كانت من أشهر العبادات، إلّا أنها لم تكن الوحيدة من نوعها، فعبادة الكبش كانت من العبادات الشائعة في الدلتا. وهذا شأن الديانة المصرية القديمة التي كانت غالباً ما تتجسد بآلهة ذات أشكال حيوانية، تحل فيها القوة الإلهية وتحظى بسلطان وسيطرة كونية، حسب الاعتقاد السائد في ذلك الوقت.

وخلال رحلة خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى، وبعد ظهور المعجزات والخوارق على يديه، استمر بنو إسرائيل بالاحتفاظ بهذا الموروث المصري الذي حملوه معهم، وظل هذا الموروث مختزناً بكل ماديته في فكرهم، إذ لم يستطع موسى أن يقنعهم بالإيمان الصحيح والبعد عن الوثنية المصرية( )، فكانت قصة عبادتهم العجل الذهبي(خر٣٢:١-٦) على غرار العجل "أبيس" لتشكل حلقة من حلقات تذمر بني إسرائيل وانقسامهم المستمر على موسى ورسالته.

والملاحظ في قصة العجل الذهبي التي يوردها سفر الخروج، أن محرري هذا السفر لم يتورعوا عن إلصاق التهم بـ"هارون"(عليه السلام)، من خلال اتهامهم له بصناعة هذا العجل، وهو ما تدل عليه النصوص التي سبقت الإشارة إليها: «وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: «قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ». فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَاتُونِي بِهَا». فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بِهَا إِلَى هَارُونَ. فَأَخَذَ ذلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالإِزْمِيلِ، وَصَنَعَهُ عِجْلاً

مَسْبُوكًا. فَقَالُوا: «هذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». فَلَمَّا نَظَرَ هَارُونُ بَنَى مَذْبَحًا أَمَامَهُ، وَنَادَى هَارُونُ وَقَالَ: «غَدًا عِيدٌ لِلرَّبِّ». فَبَكَّرُوا فِي الْغَدِ وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا ذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ. وَجَلَسَ الشَّعْبُ لِلأَكْلِ وَالشُّرْبِ ثُمَّ قَامُوا لِلَّعِبِ».

ثمّ تشير القصة بعد ذلك، إلى غضب موسى لهذا الفعل لدرجة أنه رمى لوحي الشهادة، اللذين " هُمَا صَنْعَةُ الرب"، والكتابة التي فيهما، هي كتابة الرب التي نُقشت على اللوحين، وكسرهما في أسفل الجبل(خر٣٢:١٥-٢٠)، رغم أن هذين اللوحين كانا بمثابة شهادة على التزام بني إسرائيل بالمحافظة على الوصايا العشر التي نُحتت على اللوحين، فكان كسرهما إنما يعني إلغاء ذلك الالتزام، وذلك تبعاً للعرف السائد لدى شعوب الشرق القديم. ويذكر "موشيه وينفلد"( ) بهذا الخصوص: أن موسى لم يقم بكسر الألواح ضعفاً أو غضباً، بل بعد تدبر وتفكير في الأمر منذ البداية، فإن نقض الالتزام الأول من الوصايا العشر "لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا"، قد أدى إلى تناثر الألواح التي نُحت عليها الالتزام".

والذي يمعن النظر بما ذكرته أسفار العهد القديم، لا سيما ما ذكره سفر الملوك الأول(١٢:٢٨-٢٩)، يجد أن الأثر المصري استمر في بني إسرائيل، كما أن بقايا "الوثنية" بقيت موجودة في داخلهم لأجيال كثيرة حتى بعد خروجهم من مصر واستقرارهم في أرض كنعان( )، بل وحتى قيام المملكة الإسرائيلية؛ فإنه عندما أراد "يربعام"، الذي حكم المملكة الشمالية أن يجعل للإسرائيليين مركزاً دينياً يقابل مركز أورشليم في مملكة يهوذا الجنوبية، التي كانت تحت حكم "رحبعام"، قام بصنع عجلين من الذهب وقال لهم: «كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ». وَوَضَعَ وَاحِدًا فِي بَيْتِ إِيلَ، وَجَعَلَ الآخَرَ فِي دَانَ».

وهذا يدل على أن الوثنية كانت متمكنة في قلوب بني إسرائيل، وأنهم كانوا مستعدين لعبادة آلهة أخرى غير إلههم "يهوه"، وهذا ما اتضح فعلاً من خلال عبوديتهم للآلهة الكنعانية أمثال "بعل" و"عشتروت" بمجرد دخولهم أرض كنعان، وهو ما سنتطرق إليه في حينه.

وفيما يتعلق بالوصايا العشر، فإن من اللافت للنظر، هو وجود ما يشابه تلك الوصايا في الفلكلور المصري القديم؛ فقد وجدت هناك نصوص توضح تعاليم الناموس في مصر القديمة،

ويبدو أن هناك تشابهاً بين هذه النصوص ونصوص الوصايا العشر من حيث صيغة: "افعل، ولا تفعل"، ومنها قصة شعبية تروي حياة فلاّح مصري فصيح اللسان، وحسن الكلام، يخاطب أحد الملوك المصريين، قائلاً له: "يا مولاي: اقطع دابر اللصوصية، وارحم البائسين والمساكين، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاء يشتكي ظلامته. أجر عدل ملوك العدل، واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم "رع" نفسه، قل الحق، وأت العدل، فالعدل قوة، والحق شيء عظيم، وكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ".

والذي يتضح من خلال هذه النصوص، أنها تضمنت على مجموعة من الوصايا الأخلاقية شأنها في ذلك شأن نصوص الوصايا العشر؛ بمعنى أن هذه القيم الأخلاقية لم تكن خاصة بشريعة بني إسرائيل، بل كانت سائدة لدى الشعوب القديمة، لا سيما في مصر القديمة.

لقد عاش أسباط بني إسرائيل سنوات طويلة في عالم الحضارة البابلي المصري، وقد خرجوا من مصر الآن. وكان موجودا في هذه البلدان نظام قضائي، سادت فيها قوانين رفيعة، بحسب مفاهيم ذلك العصر. كما كان موجوداً قانون دولي، كان يدافع عن الأجانب. كان موجوداً أدب حكمة أخلاقية اشتمل على أوامر حول فعل الخير والمعروف، وتوقير الأب والأم، وقول الحق وغيرها. ماذا كان التجديد في هذا العالم الحضاري في وصايا حول القتل والسرقة وغيرها؟ ماذا كان التجديد فيها الآن، بعد ثمانية قرون بعد حمورابي؟ فضلاً عن ذلك، أن العهد القديم نفسه يعترف ويشدد على أن الدستور التشريعي الأخلاقي كان سائدا في العالم منذ فترة الخليقة وأن كل الشعوب كانت خاضعة له، منذ أيام قابيل، جيل الطوفان، سدوم وغيرها، يعاقب الرب كل إنسان وكل شعب على الخطايا الأخلاقية. فما كان السبب في أن يضع العهد القديم لعهد سيناء مكانا تاريخيا بعد هذا الدستور التشريعي العالمي؟ ما الذي تفردت به الوصايا العشر، ولماذا حظيت بأن تكون القمة في علاقة بني إسرائيل بإلههم؟.

إن مما يبدو أن هذه الوصايا كانت موجودة منذ القدم في ديانات الشعوب القديمة، ومنها ديانة مصر القديمة، هذا إذا ما استثنينا منها، الوصية التي تحرم على بني إسرائيل عبادة آلهة أخرى مع الرب يهوه(خر ٢٠:٣)، فهذه خاصة بديانة بني إسرائيل، التي انتقلت كما سبق أن ذكرنا، من التفكير الطبيعي للآلهة إلى فكرة التوحيد الديني للإله؛ يضاف إلى ذلك، أن هذه الوصايا عندما أُعطيت لموسى كانت مكتوبة بعكس الوصايا السابقة لعصر موسى، والتي لم

يتم تدوينها في شريعة مكتوبة. أمّا بقية هذه الوصايا، فيفترض أنها كانت معروفة لموسى ولجماعته، وأنهم كانوا يعيشون في ظلها في مصر، فهي من الأمور البدهية لشعب متحضر يقيم لنفسه دولةً ونظاماً، وله قيمه ومثله العليا وقواعده الأخلاقية؛ بمعنى أن تشريعات «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ. لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ»، هي تحصيل حاصل بالنسبة لشعب مصر، وإلاّ بماذا نفسر هروب موسى نفسه إلى مديان، عندما قتل الرجل المصري(خر٢:١٢-١٥)، ألم يكن بسبب ارتكابه جريمة القتل. إذن كان القتل جريمة يعاقب عليها القانون المصري، وكذلك المر بالنسبة للسرقة وشهادة الزور وجميع النواهي الأخرى. إذ أن الاعتقاد الساد لدى المصريين القدامى، أن إله الموت "أوزريس" سيحاكم الناس بعد موتهم من خلال محكمة متكونة من اثنين وأربعين قاضياً، وهو ما عظّم الرادع النفسي لدى المصريين، وأفضى إلى استنكارهم لمثل هذه المنكرات.

وبناءً عليه، فإنه لا يوجد ما يبرر لذلك الزعم القائل، بأن الوصايا العشر هي قمة الأخلاق الإسرائيلية بسبب شيوع معظمها في الشرق القديم، في فترات سابقة على عصر موسى بزمن طويل.

إن من الجدير بالذكر هنا، أن التأثيرات المصرية على بني إسرائيل لم تقتصر على المستوى الديني فحسب، بل شملت كذلك الممارسات الدنيوية، وليس أدل على ذلك من ممارسة بني إسرائيل للتحنيط، لا سيما في حالتي يعقوب ويوسف(تك٥٠:٢-٣، ٢٦)، علاوة على ممارستهم للتكفين من خلال لف الجثة في كفن، إذ لم تكن تلك العادة متبعة في بني إسرائيل قبل ذلك(انظر ٢مل١٣:٢١)، بل كانت ترفع على نعش(٢صم٣:٣١)، وهذا يعني أن تلك العادة كانت في الأصل عادة مصرية قديمة